الطريقة التجانية والعوامل المساعدة على انتشار تعاليمها في مدينة فاس ونواحيها

أحـمد الأزمــــي
كلية الآداب، ظهر المهراز – فاس

مــدخل:

حل سيدي أحمد التجاني بمدينة فاس سنة 1798/1213، قادما من المغرب الأوسط، وقرر الإقامة بهاته المدينة التي زارها قبل هذا التاريخ للدراسة والتدريس. بها أسس زاويته حوالي سنة 1800، وهي المدينة التي انطلق منها إشعاع تعاليم الطريقة التجانية في كل أرجاء المغرب وخارجه في حياة الشيخ وبعد وفاته سنة 1815. فما هي العوامل التي ساعدت على انتشار هذه التعاليم ؟ وما هي الوسائل التي سخرها الشيخ وأصحابه لتحقيق هذه الغاية ؟

I- الطريقة التجانية والعوامل المساعدة على انتشار تعاليمها في مدينة فاس ونواحيها:

اعتمد الشيخ التجاني على ثلة من الأصفياء، رحبوا بدعوته منذ البداية ودخلوا في طريقته وصاروا خاصته، وبفضلهم كتب الذيوع والانتشار لتعاليم مذهبه بمدينة فاس أولا ثم خارجها فيما بعد، وكانت وسائل عملهم لتحقيق هذه الغاية متنوعة منها المادي ومنها المعنوي، وسنكتفي هنا بذكر أهم الذين كان لهم بالغ التأثير، منهم، في خدمة الشيخ وقضيته أثناء حياته وبعد وفاته.

1- الفقيه علي حرازم برادة (ت 1803/1218) [1]:

هذا الفقيه الفاسي الدار والمنشأ والقرار، احتل مكانة خاصة في قلب ووجدان الشيخ سيدي أحمد التجاني قبل أن يستقر بفاس استقراره الأخير، ذلك أن أول لقاء بينهما تم سنة 1777/1191 عندما كان الشيخ سيدي أحمد التجاني بمدينة وجدة في طريقه إلى مدينة فاس [2].

ويذكر الفقيه الحجوجي أن هذا اللقاء شكل أول فرصة لتعرف الشخصين على بعضهما البعض، مع ملاحظة أن الحاج علي حرازم برادة سبق له أن رأى رؤيا قبل عامين، تدل على صحبة هذا الولي الصالح والأخذ عنه، فكاشفه سيدي أحمد التجاني وذكرها له في هذا اللقاء، فسر علي حرازم برادة بذلك [3]، عندما رجع بذاكرته إلى الوراء وتيقن أن ما سمعه من الشيخ كان قد رآه فعلا في منامه، معترفا أن النسيان كاد أن يمحو كل أثر لهذا اللقاء الروحي من باله. ومن خلال المدة التي مكثها سيدي أحمد التجاني بفاس وزار خلالها قبر المولى إدريس، لقن تلميذه الطريقة الخلوتية وأذن له في الحزب السيفي المنسوب للقاضي أبي محمد شمهروش الجني، وقبل أن يعود الشيخ التجاني إلى تلمسان أخبر علي حرازم برادة بأنه ينوي الانتقال من هذه المدينة إلى مكان آخر [4].

ولما وقع الفتح الأكبر لسيدي أحمد التجاني بأبي سمغون عام 1782/1196، صار علي حرازم برادة يتردد على الشيخ بهذه البلدة من حين لآخر، آخذا عنه، متتبعا تطور دعوته، مشاركا له في أذكاره وخلواته، لا يحيد عن توجيهات مذهبه، إلى أن عزم سيدي أحمد التجاني على الانتقال إلى فاس بصفة نهائية، فصحبه في هذا السفر الذي استفاد خلاله الشيخ على حد تعبيره أيما استفادة. وبعد مضي شهرين على وصولهما إلى هذه الحاضرة أمره الشيخ بجمع جواهر المعاني من إملائه، بعد أن كان أمره بتمزيقه، فمزق بالفعل ولم يصدر الشيخ أمره بإعادة جمعه

1- أحمد سكيرج، كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب، المكتبة الشعبية، بيروت 1988، ص: 68.

- محمد الحجوجي الحسني، كتاب إتحاف أهل المراتب العرفانية بذكر بعض رجال الطريقة التجانية، مخطوط بخزانتنا الخاصة، من ص 98 إلى ص 117.

2- علي حرازم برادة، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، وبهامشه كتاب رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم لعمر بن سعيد الفوتي الكدوي، دار الجيل، بيروت 1988، ج1، ص: 42.

3- نفسه، ص: 42.

- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 68 وما بعدها.

- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 99 وما بعدها.

4- علي حرازم برادة، جواهر المعاني، م. س، ج1، ص: 43.

- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 100 وما بعدها.

إلا بعد أن أوحى له الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك [5]. ويرى شيوخ التجانية وفقهاؤهم أنه نظرا لجلال هذا الكتاب، وعظيم منفعته، فقد دخل بسببه كثير من الناس في الطريقة التجانية.

وفي هذا الصدد يقول الفقيه محمد الحجوجي: " ***وقد شوهد لهذا الكتاب، يعني الجواهر في المكان الذي يكون فـيه من الحفظ وسـعة الأرزاق وكثرة الـسعادة وتحسن الأخلاق، ما لا يحيط به إلا الملك الخلاق*** " [6]. كما أن هذا الكتاب كان مصدر إلهام لعدد من الشعراء.

وبناء على هذه المعطيات، فقد ساهم علي حرازم برادة بقسط كبير في تدعيم ركائز الطريقة التجانية بفاس وخارجها، بإيمانه بدعوة الشيخ منذ وقت مبكر، ومساندته له في أبـي سمغون وفي فـاس [7]، التي ضمن له بها المأوى قبل أن يرحب به المولى سليمان، وخصوصا بجمعه لكتاب جواهر المعاني المتضمن لشذرات عن شخصية سيدي أحمد التجاني، وأطوار حياته العلمية والصوفية، ومعلومات إضافية عن تعاليم الطريقة التجانية، وأقوال شيخها وأفعاله وتفسيراته لبعض ما ورد في الكتاب والسنة، وبعض رسائله إلى جهات مختلفة، مما استحق معه لقب خليفة الشيخ بامتياز. وهذا الاستحقاق هو الذي نقرأه في إجازة من الشيخ سيدي أحمد التجاني إلى علي حرازم برادة بتاريخ 8 ذي الحجة 1214 [8]: " ***... من عظمه فقد عظمنا ومن احترمه فقد احترمنا ومن أطاعه فقد أطاعنا، ومن أطاعنا فقد أطاع الله ورسوله، ومن خالفه فقد خالفنا ومن خالفنا فقد خالف الله ورسوله، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وقد أجزنا وأذنا له في جميع ما لنا مقروء ومسـموع، ومفرق ومجموع... وقد جعلناه الخليفة عنا، وأقمناه مقامنا في العلوم والأحوال والدرجات*** " [9].

غير أنه يبدو أن علي حرازم برادة لم ينل هذه الثقة وتلك التزكية من شيخه إلا بعد أن مر بصعوبات جمة، جعلت سيدي أحمد التجاني يقسو عليه أحيانا ويوجه له من العتاب، مما كان من شأنه أن يصلح ظاهره وباطنه، خصوصا عندما كان يتعلق الأمر بتطلعات الفقيه برادة إلى مقامات صوفية بعيدة المنال، وما كان يقع فيه من تجاوزات لا تشرف المريد أمام شيخه.

5- نفسه، ص: 100.
- علي حرازم برادة، جواهر المعاني، م. س، ج1، ص: 43 وما بعدها.
6- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 100ز
7- إدريس العراقي، اليواقيت العرفانية في التعريف بالشيخ أحمد التجاني وبطريقته وزاويته الأم التجانية، مرقون ضمن ندوة الطريقة الصوفية التجانية المنعقدة بفاس ما بين 23 و29 دجنبر 1985، ص: 18.
- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 69.
8- أورد محمد الحجوجي الحسني تاريخا مخالفا لتحرير هذه الإجازة وهو سنة 1216 عوض سنة 1214. انظر: إتحاف أهل المراتب العرفانية، م. س، ص: 109.
9- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 106 إلى 108.

ومن المقاطع التي تعبر عن اللوم الذي وجه لحرازم برادة من قبل شيخه في رسالة جوابية له: "... ***واترك عنك ما يتغلغل في قلبك من خواطر السوء المفضية إلى سوء الأدب مع الله ومعنا، بطلبك أمور لا نسبة لها فيك، بل ليس فيك إلا نسبة نقائضها*** " [10]، لأن من يتصرف هكذا، في تقدير الشيخ التجاني، يريد أن ينال بدون أدنى مجهود، وهو ما عناه بقوله لمريده حرازم:

لقد رمت الحصاد بغير حرث   يغوص البحر من طلب اللآلئ [11]

ثم انتقل الشيخ التجاني، في نفس الرسالة إلى إعطاء رأيه في ما طلبه منه مريده هذا، وما وقع له من أمور لم تساعده على بلوغ مراده "... ***أما ضمان المعرفة بالله من مقام محيي الدين فأنا أضمنه لك إلا القطبانية فلا أعلم فيها أمرا ولا أضمنها، وهي موكولة إلى مشيئة الله وعلمه... وإني تخوفت عليك من طلب الأغراض منا أن تنقطع عنا... فإذا طال أمرك ولم تر من أغراضك إلا الوساويس... فانهدم قصر اقتـــصارك علينا برغبتك في غيرنا، فتنقطع المحبة من أصلها وتقع فيما لا قدرة لك على حمله من الضرر...*** " [12]. ولم تخل هذه الإجازة، علاوة على ما سبق، من تحذير هدفه تقويم مريده وتنبيهه إلى الأخطاء التي يقع فيها، وهذا ما جعله يقول متحدثا عن علي حرازم برادة: " ***وقد سامحته وتجاوزت عنه في جميع ما أخذ وأكل من متاعي بعلمي أو بغير علمين ظاهرا أو باطنا في جميع الأمور الظاهرة والباطنة المتقدمة والمتأخرة مسامحة تامة عامة خالدة تالدة*** " [13]. وبعد هذه المجموعة من التوجيهات والملاحظات القاسية لعلي حرازم برادة، خلص الشيخ التجاني إلى القول، موجها مريده: " ***واذهب، والزم والتزم ما قلناه لك من الأوراد، مسلما قيادك لله في الرضا بما أقامك فيه حتى يأذن الله لنا ولك بالفتح... وأنا ضامن لك أن لا تسلب ما دمت في محبتنا...*** " [14].

ومهما تكن أخطاء علي حرازم برادة، فإنه تمكن من تجاوزها والتغلب عليها بفضل همة شيخه، وقوة باطنه، وامتثاله لإرشاداته والاعتراف أمامه بانكساره وضعف حوله، فنال بذلك مبتغاه، بعد أن نال رضا شيخه الذي عينه خليفة له، واصطفاه لتدوين كل أقواله وأفعاله طيلة المدة التي صاحبه فيها فنتج عن ذلك كتاب جواهر المعاني الذي ذكر مؤلفه أن الرسول صلى الله

---

10 – نفسه، ص: 105- 106.

11 – نفسه، ص: 106.

12 – نفسه.

13 – نفسه، ص: 108- 109.

14 – نفسه، ص: 106.

– أحمد سكيرج، كشف الحجاب، ص: 89.

عليه وسلم نسبه إليه عندما قال في شأنه: "***كتابي هذا وأنا ألفــته*** "[15]، رواية عن سيدي أحمد التجاني الذي نسب إليه أيضا قوله: "***قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم هو (حرازم برادة) منك بمنزلة أبي بكر مني وبمنزلة هارون من موسى*** "[16].

ونود أن لا نترك الكلام عن علي حرازم برادة دون طرح سؤال عريض: لماذا كان يطلب الشيخ التجاني من كل من حصل له الفتح من أصحابه أن لا يبقى معه في البلد الذي يوجد فيه ؟ [17] فعلاوة على علي حرازم برادة الذي سيضطر إلى مغادرة فاس إلى بلدان أخرى، سيعرف نفس المصير كل من ابن المشري وابن الأحمر وغيرهما.

صحيح أن هؤلاء الثلاثة قدموا خدمة جليلة لتوسيع نفوذ التجانية في البلدان الإفريقية والأسيوية، وتعزيز أواصر المسلمين في تلك الأصقاع. ومع ذلك فإن هذا الأمر في حاجة إلى معرفة أسبابه وأهدافه الحقيقية، وهي مهمة استعصت علينا. وقد نزل علي حرازم برادة عند رغبة شيخه، فقصد الديار المقدسة مرورا بتونس ومصر. وفي طريقه كان يربي ويلقن الناس تعاليم الطريقة وأورادها، وكان برفقته في هذا السفــر عبد الوهاب بن الأحمر، وعندما وصل إلى الحجاز قام بنفس الدور إلى أن وافته المنية هناك سنة 1218 هـــ، ومن الذين حضروا جنازته الحاج عبد الوهاب بن التاودي المعروف بابن الأحمر السابق ذكره [18].

2- الفقيه محمد بن المشري الحسني السائحي التكرتي (ت 1224) [19]:

يصف علي حرازم برادة في كتابه جواهر المعاني هذا الشيخ بأنه عالم علامة، فاهم دراكة، جامع بين الحقيقة والشريعة والإفادة وعلوم الطريقة، خازن سر الشيخ التجاني وحافظ عهده ومحل وده وخليل أنسه. ونفس الانطباع نقرأه في كتاب " ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية "، و" بغية المستفيد لشرح منية المريد ". أما أحمد سكيرج فقد ذكر عنه أنه

15- نفسه، ص: 73.

16- نفسه، ص: 68.

17- ينسب لسيدي أحمد التجاني قوله: " إذا فتح الله على أصحابي فالذي يجلس منهم في البلد الذي أنا فيه يخاف على نفسه من الهلاك، فقال له بعض أصحابه: منك أو من الله ؟ فأجابه بقوله: من الله تعالى من غير اختيار مني... انظر:
- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 111.
- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 83.

18- محمد الحجوجي الحسني، إتحاف أهل المراتب العرفانية، م. س، ص: 117.

19- علي حرازم برادة، جواهر المعاني، م. س، ج1، ص: 86.
- سيدي عبيدة بن أنبوجة الشنقيطي التيشيتي، ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية، شارع المشهد الحسيني، مصر، د. ت، ص: 14.
- محمد العربي بن السائح، بغية المستفيد لشرح منية المريد، دار الفكر 1973، ص: 256.

علامة فهامة دراكة حامل مذهب الإمام مالك، والسالك في العلوم أقوم المسالك، خزانة الأسرار العرفانية وترجمان الطريقة التجانية، كان من خاصة الخاصة من أصحاب سيدي أحمد التجاني والوارثين من منهل علومه الوهبية والمطلعين على بعض أسراره الغيبية [20].

هذا الولي الصالح الذي تجمع كل المؤلفات التجانية، بما في ذلك جواهر المعاني، على المكانة الخاصة والمتميزة التي كان يحتلها في قلب سيدي أحمد التجاني، شكل أحد المنارات المشعة إلى جانب علي حرازم برادة، في تاريخ الطريقة التجانية بما قدمه لها ولشيخها من خدمة من أجل إشاعة مبادئها بين الناس في فاس وخارجها إما عن طريق اللقاءات المباشرة التي يعقدها مع المحبين والمريدين، وإما عن طريق تآليفه المتعددة، ناهيك عن الدور الذي قام به عدد مهم من أفراد عائلته لنفس الغاية، وفي هذا الصدد يذكر علي حرازم برادة متحدثا عن محمد بن المشري، ما يفيد أن دار أسرته دار علم وصلاح، ولا زالوا إلى الآن من العلماء العاملين، جلهم أخذوا طريقة الشيخ سيدي أحمد التجاني [21] الذي كانوا يتجشمون عناء السفر لمدة تزيد عن عشرين يوما من أجل زيارته حاملين معهم للشيخ أصنافا متعددة من متاع الدنيا، كالثياب والتمر وغير ذلك. وقد رآهم علي حرازم برادة عند الشيخ في مناسبات متعددة، فما رأى أحسن منهم: " ***سمتا ودينا وعلما وجلهم علماء منذ عرفنا سيدنا رضي الله عنه وتأتيه الوفـود من جميع النواحي والهدايـا، ما رأيت أحسن منهم فـي الأدب والتعظيم وحسن النية...*** " [22].

كان أول لقاء بين محمد بن المشري وسيدي أحمد التجاني هو الذي تم عام 1188هـ/1774 م بتلمسان، بعد عودة هذا الأخير من الديار المقدسة، وفيه تلقى ابن المشري عن الفقيه التجاني الطريقة الخلوتية مع أسرار وأذكار أخرى. وكان إلى جانب شيخه عندما حصل له الفتح الأكبر بأبي سمغون. وعندما قرر الانتقال إلى فاس كان ضمن الأشخاص الذين رافقوا الشيخ في هجرته، ونظرا لعلمه وورعه وتفانيه في خدمة الطريقة، وبسبب الثقة التي أصبح يحظى بها عند الشيخ، فقد اتخذ منه هذا الأخير إماما في صلاته منذ 1208هـ /1794م [23]، بإذن من النبي صلى الله عليه وسلم، وكاتبا له يحرر تارة الرسائل والأجوبة التي يبعث بها إلى جهات مختلفة ولأغراض متنوعة باسم شيخ الطريقة، وتارة أخرى يحرر ما يمليه عليه نفس

20- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 149.

21- علي حرازم برادة، م. س، ص: 86.

22- نفسه، ص: 87.

23- نفسه.

الشيخ أو يسمعه منه، وهو ما مكنه من تأليف كتاب الجامع لما افترق من العلوم [24]، على غرار ما فعله علي حرازم برادة في كتاب " جواهر المعاني ".

هذا الفقيه الذي أصبح خليفة لسيدي أحمد التجاني بعد وفاة علي حرازم برادة سنة 1218هـ ، سيجد نفسه مضطرا للابتعاد عن فاس بعد أن فتح الله عليه بفضل هذه الطريقة المحمدية خوفا على نفسه من الهلاك، كما أمر بذلك سيدي أحمد التجاني الذي قال: " ***إذا فتح الله على أصحابي فالذي يجلس منهم في البلد الذي أنا فيه يخاف على نفسه من الهلاك...*** " [25].
وقد سبق لصاحب كتاب " جواهر المعاني " أن انصاع إلى تنفيذ نفس الأمر كما مر بنا.

ومرة أخرى نعود لطرح نفس السؤال، بنفس المناسبة، لماذا كان يطلب سيدي أحمد التجاني من أصحابه المفتوح عليهم أن يبتعدوا عن المكان الذي يوجد فيه ؟

ودون أن نطمح إلى الإجابة على هذا السؤال بما يشفي الغليل في الوقت الراهن، نكتفي بالقول أن محمد بن المشري استمر في تعبئته لمواصلة نشر تعاليم الطريقة بالصحراء، بعد أن شد الرحال إلى عين ماضي وظل على عهده إلى أن توفي بها سنة 1224 [26].

3- <u>الفقيه محمد الطيب السفياني (ت 1259 هـ)</u> [27]:

فقيه، على كامل المعرفة بالتجويد، موصوف بالولاية الكبرى والفتح الكبير، ورغم أنه اشتهر بالسفياني فإنه لا تجمعه أية رابطة دموية بالسفيانيين القاطنين بفاس، وسبب شهرته بالسفياني تربية جده في أحضان الولي الصالح سيدي الحسن بن إبراهيم السفياني، والذي استقر بفاس إلى أن توفي سنة 1089 هـ، وكانت له طريقة وأتباع وكان سبب دخول الطيب السفياني في الطريقة التجانية، أنه لما ذهب إلى الحج ومر بمصر، أتيحت له فرصة الاطلاع على كتاب " جواهر المعاني "، فتاقت نفسه على إثر ذلك إلى الدخول في هذه الطريقة والتخلي عن الوزانية.
وهذا ما تم له بالفعل بعد رجوعه إلى فاس.

ولم تمض مدة طويلة على دخول السفياني في هذه الطريقة حتى حظي بمحبة خالصة لدى الشيخ، الذي صار يثني عليه بين العامة والخاصة من أصحابه [28]. وقد قام الشيخ إليه

24- العنوان الكامل لهذا الكتاب الغير المنشور هو: الجامع لما افترق من درر العلوم الفائضة من بحار القطب المكتوم، انظر أيضا كشف الحجاب لأحمد سكيرج، ص: 150.

25- سبق أن أشرنا إلى هذه القولة في صفحة سابقة، وقد وردت عند أحمد سكيرج في كشف الحجاب، ص 152.
وعند محمد الحسني الحجوجي في إتحاف أهل المراتب العرفانية ص 111.

26- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 151.
- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 147.

27- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 170.
- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص 156 إلى ص 162.

مرارا تعظيما له واحتراما، جريا على عادته في تقدير الشرفاء، وفي هذا الصدد يذكر صاحب " كشف الحجاب " أن الإمام النووي ألف في استحباب القيام لأهل الفضل جزءا مستقلا، وتعقبه ابن الحاج في المدخل. كما ورد في بعض الآثار يضيف نفس المصدر، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رآه سيدنا حسان بن ثابت مقبلا بادر بالقيام وأنشد:

أقـــوم والقـــيام إليـــــك فرض   وتـــرك الفرض أنـــي يستقيـــم

أيمكن من يكون له عقل رجيح   ومعرفـــة يـــراك ولا يقـــــوم [29]

لم ينل الطيب السفياني هذه الرتبة من حب الشيخ له، إلا بعد أن أظهر مثابرة متميزة في بث تعاليم الطريقة وأذكارها بين جموع الناس التي ارتفعت أعدادها مع مرور الزمن بمدينة فاس وقد ساعده على ذلك علمه وهمـــة الشيخ وماله الواسع الذي حـــباه الله به، ولعل هـــذه الصفات هي التي أهلته لنيل مرتبة المقدم من شيخه.

لقد أظهر محمد الطيب السفياني بصفته عالما ووليا صالحا ومقدما، سخاء كبيرا في إنفاق الأموال الباهضة خدمة لأهداف الطريقة التجانية، تارة بإطعام الفقراء والمساهمة في بناء الزاوية، وأحيانا أخرى في أداء ثمن مشتريات متنوعة لفائدة الشيخ وأسرته وضيوفه، هذا مع الإشارة إلى أنه كان في آخر عمر الشيخ هو الذي يتولى صائر داره [30]، ومما يدل على أن حطام الدنيا كان في يده ولم يكن في قلبه، طلبه من الشيخ التجاني أن يدعو الله له بأن يتوفاه على محبته فدعا له بذلك وقال له: " ***اعد للفقر جلبابا*** ". وبعد هذا الدعاء بدأت ثروته في التراجع سنة بعد أخرى، مقابل اطمئنان قلبه بمحبة الشيخ إلى أن وافته المنية، ليدفن بجبل زعفران بفاس. **وعلى غرار علي حرازم برادة ومحمد بن المشري، فإن محمد الطيب السفياني ألف كتابا مساهمة منه في تدوين بعض كلام سيدي أحمد التجاني، ويحمل هذا الكتاب عنوان: " الإفادة الأحمدية لمريد السعادة الأبدية "، ورتبه على عدد حروف المعجم، وقد نشأ ابنه أحمد بن الطيب السفياني على محبة الشيخ وطريقته.**

4- <u>عبد الوهاب بن الأحمر (ت 1269 هـ)</u> [31]:

هو الولي الصالح عبد الوهاب بن التاودي المعروف بابن الأحمر نسبة إلى المدينة الحمراء، الغرناطي الأصل الفاسي المولد والدار والإقبار. من الأوائل الذين بادروا إلى الوقوف

28- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 174.

29- نفس المصدر، ص: 175.

30- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 162.

31- نفسه، ص: 148.

- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص 231 وما بعدها.

إلى جانب الشيخ سيدي أحمد التجاني، فأصبح في مدة قصيرة من خاصة خاصته الذين لازموه حضرا وسفرا [32]. ويشهد على هذا السبق قراءته للوظيفة مع جماعة من أحباب الطريقة بباب دار سيدي أحمد التجاني، قبل إنشاء الزاوية بفاس، وبحضور الشيخ نفسه [33]، وهو أحد العشرة الذين ضمن لهم النبي صلى الله عليه وسلم الفتح الكبير، حسب ما أخبر به سيدي أحمد التجاني، كما أنه كان من الملازمين لعلي حرازم برادة الذي رافقه في سفره إلى الديار المقدسة بأمر من الشيخ، وحج معه، وأخذ عنه، وتعلم منه الشيء الكثير بفضل هذه الصحبة الطويلة خارج الوطن. ولم يفترق عن شيخه حرازم، إلا بعد أن فرق بينهما الموت، عندما شاءت الأقدار الإلهية أن يلفظ هذا الأخير أنفاسه الأخيرة في أطهر بقعة ببدر [34]، فحضر ابن الأحمر جنازته وعاد إلى فاس محملا بالكثير من أسراره، متألما لفراقه. وكان عزاؤه الوحيد في هذا المصاب، والأمل الذي كل من تمسك به أصاب، هو شيخه الأكبر سيدي أحمد التجاني الذي يختفي برؤيته كل كرب، فلازمه بزاويته بعد هذه العودة، واستمر يقبس من أنواره، ويستنير بهديه وإرشاده، حتى صار بحرا في أسرار الطريقة لا يضاهى، مما جعل الفقيه محمد الحجوجي يقول نقلا عن العربي بن السائح: ***"... لم يرو الحزب الموسوم بحزب البحر عن الشيخ رضي الله عنه أحد من جميع أصحابه إلا الصاحب الخاص لسيدنا رضي الله عنه سيدي الحاج عبد الوهاب بن الأحمر، ولم يأذن فيه أحد من أصحاب الشيخ إلا هو..."*** [35].

ومما يدل على الجهود التي بذلها للتعريف بالطريقة التجانية وترغيب الناس في الدخول فيها، كثرة الأشخاص الذين انخرطوا في الطريقة على يديه، والإجازات التي أجاز بها عددا من المريدين، ونكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة لذلك.

من الأشخاص البارزين الذين أخذوا عنه أسرار الطريقة ولطائفها [36] العربي بن السائح الغني عن التعريف، ومولاي عبد الله الودغيري البدراوي [37] نقيب الشرفاء الوداغير

32- نفسه، ص: 232.

33- كانت البقعة التي تتم فيها هذه القراءة طاهرة، صلى بها الشيخ مع جماعة من أصحابه، ولما كان هذا المكان يكثر عليه توارد الزوار، وممرا للداخل والخارج من الدار، أمر سيدي أحمد التجاني نشر ثوب يغطي كل البقعة التي يتعبد فيها حتى تتأكد طهارتها، وبعد الانتهاء من القراءة يطوى ذلك الثوب ويصان، ولا يستعمل إلا لنفس الغرض. وبعد إنشاء الزاوية دأب التجانيون على نشر الثوب أمامهم وسط الحلقة أثناء تلاوة جوهرة الكمال بمرأى ومسمع من الشيخ لاستحسانهم له، لما فيه من الأدب الخاص... ثم تتابع الناس في سائر أقطار الأرض على هذا العمل. انظر: كشف الحجاب، م. س، ص: 238.

34- حدثت هذه الوفاة سنة 1218، انظر: كشف الحجاب، م. س، ص: 232.

35- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 148.

36- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 237.

37- نفسه، ص: 236.

المتوفى سنة 1316هـ ، ومولاي عبد الملك العلوي الضرير مربي المريدين وإمام المرشدين، وهو صاحب كرامات ومناقب وخطب وأحزاب، اعتنى بعض العلماء من الطريقة التجانية بجمعها في تأليف حمل عنوان: " الروض النضير بترجمة الشريف مولاي عبد الملك الضرير " (38).

وقد أورد صاحب " إتحاف أهل المراتب العرفانية " نموذجا للإجازات التي كان يجيز بها مريديه، عندما قال: " وقد وقفت على إجازة أجاز بها بعض الفضلاء وإليك نصها " (39). ونكتفي من جهتنا بانتقاء بعض العبارات منها: " الحمد لله بلسان المرتبة الجامعة للكمالات كلها والصلاة والسلام على من خصه الله بالعلوم والأسرار بأجمعها وبعد فيقول العبد الفقير إلى مولاه عبد الوهاب بن التاودي، الشهير بابن الأحمر التجاني طريقة المسكين حقيقة، قد أذنت وأجزت للفقيه النبيه الناسك النزيه أبي حفص سيدي عمر بن الفقيه سيدي محمد بن علي الجلاوي المراكشي في كل ما اشتمل عليه شيخنا... أحمد بن محمد التجاني... من جواهر المعاني وبلوغ الأماني من جميع الأحاديث والأذكار والصلوات على النبي المختار، وأن يأذن لمن طلب منه دعاء أو صلاة أو غيرها... وكذا أذنته في تلقين الورد لكل من طلبه من المسلمين بالشرط المذكور... وكـن لله يكن لك الله... نـور الله قلبك بالمشاهدة وزيـن ظاهرك بالمجاهدة... وأقبل عليك بفضله ورضاه... تجـاه النبي وآله وسلم تسـليما ". بتاريخ أول صفر عام اثنين وستين ومائتين وألف (1262هـ/1853م) (40). توفي عبد الوهاب بن الأحمر عام 1269 هـ ، بعد ستة عشر شهرا لإدراكه القطبانية، حسب ما أخبر به الفقيه الحجوجي دون أن يذكر المصدر الذي اعتمد عليه، وتم دفن ابن الأحمر بقباب باب الفتوح (41).

5- <u>محمد الغالي بوطالب (ت 1244)</u> (42):

كان يسكن بمكناسة الزيتون وقصد سيدي أحمد التجاني بمجرد أن سمع به، وفي مدة قصيرة صار من أفاضل خاصة الخاصة من أصحاب هذا الشيخ، وهو أحد العشرة المضمون لهم الفتح الأكبر، كما قيل عنه أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال له: **(أنت ابن الحبيب وأخذت طريقة الحبيب)** (43). وصفه صاحب البغية بأحد أركان الطريقة التجانية، ممن

38- نفس المصدر، ص: 234- 235.

39- نفسه، ص: 150.

40- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 151 وما بعدها.

41- نفسه، ص: 153.

42- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 262 وما بعدها.

- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 132 وما بعدها.

43- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 263.

انتشرت على أيديهم بالمشرق والمغرب، وعنه انتقلت إلى السوادين [44]. ولم ينل هذه الدرجة العظمى في الطريقة إلا بسبب حبه للشيخ وإخلاصه في إذاعة أفكارها بين الخاص والعام، مما جعل الشيخ يجيزه في الطريقة ويأذن له بتقديم أربعة، وكل واحد من هؤلاء الأربعة يسمح له بتقديم أربعة لا أكثر، حسب ما ورد في كشف الحجاب، لكن صاحب أهل المراتب العرفانية يضيف رواية أخرى علاوة على الرواية السابقة مفادها أن سيدي أحمد التجاني أمره أن يقدم ستة عشر مقدما وكل واحد منهم يقدم أربعة، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ، يضيف نفس المصدر [45].

ويمكن التوفيق بين الروايتين بكون الشيخ التجاني رخص له في مرحلة أولية حسب الرواية الأولى، ثم رقاه بعد ذلك، تبعا لكفاءته في مرحلة ثانية، وأيا كان الأمر فالملاحظ أن سيدي أحمد التجاني لم يكن إذنه في التقديم لمحمد الغالي بوطالب مطلقا، وأمام هذا الواقع وبناء على معطيات أخرى نتساءل عن سبب تجاوز هذا الأخير للحد المرخص له فيه ؟ تجيب الأدبيات التجانية على هذا السؤال بكون هذا الشيخ لم يتعد الحدود المسموح له بها في التقديم طيلة حياة الشيخ وقبل أن ينتقل محمد الغالي إلى الحرمين الشريفين، لكن بعد أن أصبح مقيما بالديار المقدسة، تقول هذه الأدبيات، فالذي صار يظهر من عمله الإطلاق، إذ لا شك تضيف نفس المصادر أنه حصل له الإذن فيه من بعض من لقيه في البلاد المشرقية من المقدمين، وإما من غيرهم بطريق الاستفاضة من روحانيات الأنبياء وورثتهم [46]. أما سبب انتقاله إلى الحرمين الشريفين فيبدو أنه مرتبط بوصية الشيخ التي لابد من الحرص على تنفيذ مقتضاها، بالرحيل عن المكان الذي يوجد فيه الشيخ بالنسبة لكل من فتح الله عليه. وبما أن محمد الغالي بوطالب كان ممن أدرك التصرف في الوجود والتربية الخاصة في الطريق، فإنه يعد من بين الذين تحتم عليهم مغادرة البلد الذي يوجد فيه الشيخ، كما حصل لعلي حرازم برادة ومحمد بن المشري [47]. ومما يشهد لمحمد الغالي بالدور البارز الذي قام به في نشر تعاليم الطريقة وتعزيز وجودها في داخل المغرب وخارجه علاوة على ما سبق، تخرج جماعة من أعيان الطريقة على يده كسيدي بوعزة ولد الخليفة حرازم برادة وحماد لحلو وموسى بن عزوز صفي الشيخ الذي أجازه في بعض

---

[44]- محمد العربي بن السائح، بغية المستفيد...، م. س، ص: 259.
[45]- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 135.
[46]- محمد العربي بن السائح، بغية المستفيد...، م. س، ص: 259.
- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 262.
[47]- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 135.

أسرار الطريقة، ولسان الطريقة محمد أكنسوس الذي أخذ عنه أول ما أخذ، وسيدي أحمد بناني كلا، والحاج عمر الفوتي التكروري [48]. توفي محمد الغالي سنة 1244 ودفن بجانب أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، بمكة المشرفة [49].

6- الحاج الغازي [50]:

رجل بربري من قبيلة بني مطير، كان من الأولياء الصالحين العابدين الزاهدين، أخذ عن سيدي أحمد التجاني مباشرة، وكان من قدماء أصحابه، من الذين وقفوا إلى جانبه في الأيام العصيبة الأولى رغم بعد مسكنه. ونظرا، لقوة إيمان هذا الرجل وقيامه على ساق الجد في الطريقة، تمشيا مع إرادة الشيخ التجاني قبل وفاته، ومع العلم أن الحاج الغازي لم يكن له شأن كبير في الثقافة والعلوم، فإنه فاز بهذا الحظ، لأن الترقي في مدارج السلوك لمعرفة الله يرتكز أساسا على الصدق والثبات أكثر من أي شيء آخر. ومما يبرز الدور الذي لعبه الحاج الغازي هذا في العمل على الدفع بالطريقة إلى الأمام على عهد الشيخ وبعده، الإذن الذي منحه لمحمد بلقاسم بصري المكناسي في تلقين أوراد الطريقة لمن رغب فيها، رغم علو كعب هذا الأخير في شتى ميادين العلم والمعرفة والذي سيلعب دورا متميزا في خدمة الطريقة.

7- محمد بلقاسم بصـــري (ت 1293 هــ) [51]:

يفتتح الفقيه محمد الحجوجي الكلام عنه بوصفه بالشيخ الإمام العالم الهمام، الولي الصالح والمقدم الناصح، أحد أركان الطريقة أبو عبد الله سيدي محمد بلقاسم بن الطيب المعروف بابن بصري، كان خطيبا بالجامع الكبير بمكناسة الزيتون، أخذ عن سيدي أحمد التجاني وتأدب وتخلق بأخلاقه. وغطاه هذا الأخير مرة بردائه وقال له: " ***قبلناك على أية حالة كنت*** " [52]، ويستفاد من نفس المصدر أن الشيخ التجاني لم يناد أحدا قط باسم المقدم إلا هو، غير ان محمد بلقاسم بصري، طبقا لما تتضمنه المصادر التجانية، لم يحظ بأخذ الإذن في تقلين الطريقة وأورادها عندما كان الشيخ على قيد الحياة، فهل يرد ذلك إلى صغر سن هذا المريد آنذاك ثم وفاة الشيخ فيما بعد ؟ ويبدو أنه نظرا للمكانة التي كان يحتلها بلقاسم بصري، في قلب الشيخ قبل

48- نفسه، ص: 137.
49- نفسه.
50- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 249 وما بعدها.
- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 235 وما بعدها.
51- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 422 وما بعدها.
- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 213.
52- نفسه، ص: 213.

وفاته، ونظرا لما برهن عليه فيما بعد من تفان في التعريف بالطريقة، مما شهد له به الكثير من الأصحاب والأحباب من كبار أطر التجانية، فقد حصل على الإذن بالتلقين من أكثر من شيخ تجاني، تتوفر فيه شروط الترخيص والإجازة كعلي التماسيني، وعبد الوهاب بن الأحمر، والحاج الغازي [53]، وبخصوص الإذن الذي خصه به التماسيني يقول بلقاسم بصري: " ***ومما من الله على أفقر الورى إلى رحمة مولاه... أن حصل له الإذن في تلقين ورد شيخنا العارف الأكبر والكبريت الأحمر... مولاي أبي العباس أحمد بن محمد التجاني (ر)، من أخينا في الله المحبوب البركة الذي كان يشهد له الشيخ (ر) حال حياته بالفتح تصريحا، وعنده الإذن من الشيخ. وكان يلقن الأوراد حال حياة الشيخ، وهو سيدي الحاج علي بن الحاج عيسى من بلاد تماسين بصحراء الجريد، ومن هناك كتب إلي بالإذن بخط يده...*** " [54].

وقد أجازه عبد الوهاب بن الأحمر أيضا. ومما جاء في هذه الإجازة: " ***أجزت لحبيبنا وصفينا ومحل ودنا وسرنا الفقيه المحب في الله... محمد بلقاسم بصري... في تلقين الأوراد والأذكار المشهورة والمأثورة عن شيخنا وخليفته رضي الله عنهما، ما اشتمل عليه كتابه المسمى بجواهر المعاني... وكذا مما سمع منه وأخذ عنه من كل ما يرجع للطريقة التجانية من خاص وعام تلقينا وإجازة عامة، وكذا إن ظهر له من يصلح للتقديم من غير سكان بلد مكناسة الزيتون مدة حياته، ما يظهر له فيه صلاح الإخوان والمسلمين*** " [55].

ومما وجد بخط يد محمد بلقاسم بصري، في شأن إجازة الحاج الغازي له، أن هذا الأخير بدوره كان قد أجازه محمد الغالي بوطالب، الذي سبق أن ذكرنا في شأنه أن سيدي أحمد التجاني أذن له في تقديم أربعة أشخاص، وكان الحاج الغازي أحد الأربعة الذين قدمهم بوطالب، وحصل هذا الإذن في أوائل عام أربعة وأربعين ومائتين وألف هـ بضريح الشيخ بزاوية فاس [56]. وسواء أخذ محمد بلقاسم بصري التقديم عن الشيخ مباشرة أو عن غيره من خلفائه، وبعيدا

53- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 422 إلى 429.

54- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 213.

55- نفسه، ص: 215- 216.

56- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 429.

والواقع أن مسألة أخذ بلقاسم بصري عن الشيخ التجاني مباشرة ليس حولها إجماع بين مؤرخي التجانية، وحتى إذا كان أخذ عنه مباشرة، هل أخذ الورد أم التقديم ؟ يقول الفقيه الحجوجي حول هذا الموضوع: " ما ذكرناه قبل أن صاحب الترجمة أخذ عن سيدنا رضي الله عنه الإذن في الورد وأخذ الإذن في التقديم عن سيدي الغازي المطيري وعن سيدي الغالي بوطالب هو الصواب " حسب ما وقفت على ذلك في كناشه فعليه التعويل.

انظر: محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 217.

غير أن أحمد سكيرج في الجزء الثالث من رفع النقاب (ص 55) المنشور سنة 1971 بعد كشف الحجاب، يذكر أن بعض الإخوان احتج عليه مؤكدا أن بلقاسم بصري أخذ التقديم عن الشيخ مباشرة.

عن الجدل الذي أثاره هذا الموضوع بين فقهاء التجانية، فإن المؤكد هو أن هذا الشيخ بلغ حدا من السلوك والترقي في مدارج الفتوحات والأنوار جعله ينال احترام كبراء الطريقة التجانية في شمال المغرب وجنوبه، ونكتفي هنا بإدراج مثالين: الأول من الشمال والثاني من الجنوب.

الشخص الذي نقدمه كمثال من الشمال هو سيدي العربي بن السايح الذي يخاطب محمد بلقاسم بصري في إحدى رسائله بقوله: " ***سيدنا الأعظم الذي إليه تنتهي المساند وركننا الشديد الذي إليه الإيواء في الشدائد، مظهر الأنوار الأحمدية... المحيط بإرث هدي السلف بلا نزاع...*** " [57]. وفي رسالة أخرى موجهة من العربي بن السايح أيضا إلى ابن محمد بصري واسمه بلقاسم، ورد: " ***ما نرغب إلى سيادتك فيه أن تنوب عنا في أداء ما يجب لجلالة سيدنا والدكم الأعز حفظنا الله في وجود بركته، وتطلب لنا رضاه ودعاءه الصالح...*** " [58].

النموذج الثاني المقترح في التدليل على أهمية محمد بلقاسم بصري، ينتمي صاحبه إلى بلاد شنقيط من أقصى جنوب المغرب الموغل في الصحراء وما وراءها، ولم يذكر المصدر الذي اعتمدنا عليه اسم هذا الشخص، بل اكتفى بنعته بأحد الفحول من أهل شنقيط [59] الذي أمره الفقيه محمد أكنسوس، إذا ذهب لزيارة سيدي أحمد التجاني عليه أن يزور أيضا ثلاثة نفر من أصحاب الشيخ، وأحد هؤلاء الثلاثة، المقدم محمد بلقاسم بصري، وبعـد حياة مليئة بالزهد والعمل الصالح والتفاني في خدمة الطريقة التجانية، توفي عام 1876/1293 [60].

8- <u>مولاي محمد بن أبي النصر العلوي</u> (ت 1273 هـ) [61]:

فاسي المنشأ والقرار، علوي سجلماسي الأصل، كان من أكابر العارفين وخاصة الخاصة المقربين، وهو أحد العشرة الذين ضمن لهم النبي صلى الله عليه وسلم المعرفة بالله والفتح الكبير، كما يعتبر أحد الخاصة الذين طالت صحبتهم لسيدي أحمد التجاني. ومع طول صحبته لم يفارقه لا في الليل ولا في النهار، إلا في بعض الأوقات الضرورية، لذلك لم تفته أي فريضة خلف الشيخ لمدة ست عشرة سنة، وظهر على ابن أبي النصـر هذا كرامات شهد له بها الكـثير من الناس، وفي مقدمتهـم محمد العربي ابن السائح، ومحمد أكنسوس [62]، مما كان

57- أحمد سكيرج، رفع النقاب بعد كشف الحجاب، مطبعة الأمنية، الرباط 1971، ج3، ص: 55.

58- نفسه، ص: 56.

59- الغالب على الظن أن الشخص المقصود، هو أحمد العلوي الشنقيطي مؤلف روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف بأكابر الطريقة والذي له عدة مراسلات مع كبار فقهاء التجانية خلال النصف الثاني من القرن 19.

60- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 422.

- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 217.

61- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 158.

62- نفسه، ص: 158 وما بعدها.

سببا في دخول عدد كبير من المريدين على يده في الطريقة، بل إن البعض من الشعراء كالطاهر السوسي الإفراني الذي وقع تحت تأثير مهابة هذا الرجل، لشدة ورعه وعظم قدره المؤيد بالأسرار الربانية والأنوار المحمدية، عندما شاهده بمناسبة قدومه لزيارة سيدي أحمد التجاني تفتقت قريحته عن قصيدة استعطف فيها ابن أبي النصر، ورجا من خلالها تحقيق مراده وجاء في مطلعها:

أمولاي يا ذا الجود يا ابن أبي النصر

ويـــا من له فــضل يجل عــن الحصر

ويا من سما عرش الخلافة رافعـــا

على الرأس من دون الورى راية النصر

ويا من بإرث الشيخ قاد خطة التـــ

ـــصرف بالتخصيص من مالك الأمـــر

أغــثني من دهـــر تألب صـــرفه

عـــلي ومـــن هـــم يضيـــق بـــه صدري [63]

وبسبب علو مكانته عند الشيخ سيدي أحمد التجاني، ونظرا للكرامات التي ظهرت عليه، أورد الفقيه أحمد سكيرج أن الخاصة من فقهاء الطريقة كانوا يصفون محمد بن أبي النصر العلوي بالخلافة الكبرى والوساطة العظمى، في وصول المدد من حضرة الشيخ، بعد وفاة الخليفة الأعظم سيدي الحاج علي حرازم برادة، ويضيف أنه وقف في كناش شيخه العلامة محمد الحبيب الداودي على أسرار عظيمة المقــدار، نقلها من خط بن أبي النصر العلوي الذي حصل عليها بدوره من سيدي أحمد التجاني [64].

وتوفي في شوال عام ثلاث وسبعين ومائتين وألف (1273هـــ /1857 م)، ودفن بروضة سيدي التواتي المجاورة لروضة الجلالية من طالعة فاس [65]. وقبل وفاته أوصى أن يخرج من ثلث إرثه أربعمائة مثقال من عملة الوقت لفائدة الزاوية، تصرف في مصالحها. وخلف ثلاثة أبناء هم: مولاي بلقاسم ومولاي الطاهر الذي امتاز بين إخوته في مواصلة خدمة الطريق بدون انقطاع، وقد انتقل كل من مولاي بلقاسم ومولاي أحمد للاستقرار بثغر الصويرة، إلى أن

63- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 161.
- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 131.
64- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 169.
65- نفسه، ص: 170.

توفيا وتركا به ذرية أعطت للطريقة التجانية بهذه الأقاليم دعما وانتشارا، نظرا للدور الذي قاموا به في التعريف بها هناك [66].

II- شبكة من المقدمين مدعومة بفئة من التجار والحرفيين والمنشدين:

إن المدة الفاصلة بين وصول سيدي أحمد التجاني إلى فاس سنة 1213 هـ/1798م للإقامة فيها بصفة نهائية، وتاريخ وفاته سنة 1815/1230، كانت كافية لهذا الشيخ لإعداد المرتكزات الضرورية التي ضمنت ذيوع دعوته وبقاءها وانتشار تعاليم طريقته واستمراريتها، داخل مدينة فاس ثم في باقي أنحاء المغرب وخارجه.

فخلال هذه الفترة التي دامت حوالي سبعة عشر سنة، وبمساعدة ثلة من أكثر الناس إخلاصا له من أصحابه، كالفقيه علي حرازم برادة ومحمد ابن المشري، والطيب السفياني، وعبد الوهاب بن الأحمر ومحمد الغالي بوطالب، وغيرهم ممن تعرفنا عليهم، نما عدد الأشخاص الذين يمكن الاعتماد عليهم، إما بتزكية من الشيخ أو من أصحابه الذين كان لهم الترخيص المطلوب وفق شروط محددة [67]، لتعيين المزيد من المسؤولين في أفق تعليم الناس أوراد الطريقة وأذكارها. وهذا ما كان سببا في ظهور عدد مهم من المقدمين موزعين على مختلف أنحاء مدينة فاس وخارجها، حققوا نجاحا بينا في مهامهم، بمساندة فئة من التجار والحرفيين والمنشدين للقصائد الصوفية المتغنية بالعشق الإلهي والنور المحمدي.

فالتجار والحرفيون من التجانيين، كانوا على استعداد لتوفير الشروط المادية الضرورية التي تتطلبها تحركات المقدمين وأنشطتهم، في تنظيم حلقات الدروس والإفتاء وترؤس تجمعات ليلا ونهارا، وشراء بعض الكتب، وتقديم بعض الهدايا من المصنوعات المحلية، عندما تدعو الضرورة إلى ذلك، في حين كان دور ذوي الأصوات الجميلة من المنشدين على إيقاع بعض الآلات الموسيقية، هو جعل الناس يتذوقون أنغام الشعر الصوفي وأبعاده الروحية، ويتلذذون بما

66- محمد الحجوجي الحسني، م. س، ص: 132.

67- حدد بعضهم هذه الشروط في تسعة وعشرين، لكن أهمها في تقديرنا الستة الأولى وهي:

- الشرط الأول: أن يكون الشيخ الذي يلقن الأوراد اللازمة والاختيارية مأذونا إذنا صحيحا من القدوة أو ممن أذن له.
- الشرط الثاني: أن يكون طالب التلقين خاليا من أوراد المشايخ.
- الشرط الثالث: عدم زيارة الأولياء الأحياء والأموات.
- الشرط الرابع: دوام المحافظة على الصلوات في الجماعة إن أمكن ذلك للفضل الوارد في صلاة الجماعة، عن النبي (ص).
- الشرط الخامس: دوام محبة الشيخ سيدي أحمد التجاني.
- الشرط السادس: عدم الأمن من مكر الله لقوله تعالى: **(أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون).**

انظر: محمد سعد عبد الله الرباطي، الدرر السنية في شروط وأحكام أوراد الطريقة التجانية، مكتبة القاهرة، 1955، ص: 4- 5.

يجدونه في الألحان العذبة التي يستمعون إليها من متعة باطنية شبيهة بما يحس به المريد المتمرس في الطريقة من نشوة وسعادة، عندما يكون بصدد تشغيل سبحته وفمه ولسانه وكل جوارحه، لاهجا بذكر الله، متجردا عن كل الأسباب والحظوظ الدنيوية المادية منها والمعنوية، وهي المقامات التي لابد أن يصل إليها كل من سار على الطريق من هؤلاء المبتدئين الذين يأخذ المقدمون بأيديهم.

III- تدخل شيخ الطريقة نفسه لتأطير مجهودات الدعاة والمقدمين ودعمهم:

اكتسى هذا التدخل عدة مظاهر يمكن حصر أهمها في جولاته وتحركاته داخل المدينة، وفي الأدبيات التي تعكس عددا يكاد لا يحصى من كراماته، وفي الرسائل التي كان يبعث بها إلى مختلف الجهات للإجابة على أسئلة المقدمين والمريدين المختلفة، حول بعض ما كان يصعب عليهم فهمه من تعاليم الطريقة، أو من أجل تحقيق مطالب بعض الذين يودون الحصول على أدعية لتحقيق أغراض معينة.

1- <u>الجولات والزيارات والرسائل</u>:

لم يكن سيدي أحمد التجاني، لا قبل بناء الزاوية ولا بعد بنائها بالشيخ المنزوي الذي لا يخرج من خلواته، ولا يراه الناس إلا نادرا بل على العكس من ذلك كان كثير الحركة كما تتحدث عن ذلك المصادر التجانية، نظرا لطبيعة تكوينه في علمي الظاهر والباطن، وبسبب التزامه بنشر تعاليم مذهبه. فهو الفقيه المتمكن من العلوم العقلية والنقلية، لا يرد طلب من سأله عن أمر من الأمور الدينية والدنيوية، كبر أو صغر شأنه (68)، وهو الصوفي الشارب من بحار المعرفة الدينية، لا يخيب من قصده من أجل الأخذ بيده والسلوك به في الطريق الموصلة إلى الحضرة الربانية، مؤكدا في كل ذلك على ضرورة مراعاة تطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية (69)، موصيا بأن ما وافق الشريعة الإسلامية من كلامه يجب أخذه وما خالفها يجب تركه.

كانت جولات سيدي أحمد التجاني وزياراته داخل مدينة فاس وأحيانا خارجها تفرض نفسها، إما من أجل مراقبة عمل مقدميه أو من أجل حضور حلقات الذكر في هذه الجهة أو تلك من المدينة، أو نزولا عند رغبة بعض الأسر التي كانت تدعوه لزيارة منازلها للتبرك به بمناسبة أو بدون مناسبة (70). وكان وجهه على ما يبدو معروفا جدا عنه عامة الناس وخاصتهم بفاس،

68- محمد الطيب السفياني، الإفادة الأحمدية لمريد السعادة الأبدية، م. س، ص: 51 ثم ص 72.
69- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 371.
70- محمد الطيب السفياني، الإفادة الأحمدية، م. س، ص: 104.

لأنه كثيرا ما كان يصلي في القرويين [71]، قاطعا المسافة الفاصلة بين مسكنة بزقاق الرواح والقرويين على جواده، فكان المارة وأصحاب الدكاكين يتملون بطلعته كلما مر أمامهم [72]، ونفس الشيء كان يقع عندما يذهب للتنزه والتأمل في أسرار الخالق خارج المدينة وبعيدا عن ضوضائها [73]. وبعد بناء الزاوية كان لابد له كذلك من أن ينتقل بين مسكنه ومقر الزاوية [74]، ومن ناحية أخرى يجب أن لا يغيب عن بالنا أن خروجه أحيانا كان يكتسي صبغة رسمية عندما يتعلق الأمر بالمشاركة في مجلس علمي يحضره السلطان، من أجل الإفتاء أو الاستشارة أو التفسير [75] أو ما يشابه ذلك.

غير أنه كيف ما كان نوع خروجه أو زيارته وجولاته في فاس وخارجها [76]، فإن الهدف يكون واحدا، وهو تسليط المزيد من الضوء على مذهبه وطريقته، موضحا ومصححا، ومفتيا، ومرغبا، مبشرا غير منفر، سلاحه في كل اللقاءات والمنتديات الكتاب والسنة والشمائل النبوية حتى لا يترك المقدمين والدعاة لشأنهم، غير قادرين على فك غموض بعض أسرار الطريقة، وهذا ما أعطى شحنة قوية لانتشارها وذيوعها بفاس في زمن قياسي.

أما الرسائل [77] فيمكن أن نميز فيها بين نوعين: رسائل من سيدي أحمد التجاني إلى المقدمين والفقراء والأحباب والأمراء، ورسائل من كل هاته الفئات من السالكين إلى الشيخ التجاني، مع ملاحظة أن هدف هاته الرسائل بشكل عام، هو ضمان السير الحثيث والانتشار السليم للطريقة بين كل المنضوين تحت تعاليمها، نظرا لما تتضمنه من: أسئلة من قبل السائلين، ومن أجوبة صادرة عن الشيخ سيدي أحمد التجاني.

إن عناصر الأجوبة الواردة في رسائل شيخ الطريقة تدل دلالة قاطعة أنه واع، بأن مستقبل التجانية من حيث نجاحها أو فشلها يجب أن يحسم فيه قبل وفاته، وهي الغاية التي بذل من أجلها كل ما في وسعه لتكتسب طريقته وهو على قيد الحياة كل ما هي في حاجة إليه من المناعة

71- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 536.
72- محمد الطيب السفياني، الإفادة الأحمدية، م. س، ص: 56.
73- نفسه، ص: 94.
74- كان بناء الزاوية سنة 1215 (1800) حسب الإفادة الأحمدية، ص: 68.
75- أحمد سكيرج، رفع النقاب بعد كشف الحجاب، مطبعة الأمنية الرباط 1975، ج4، ص: 10- 11.
- علي حرازم برادة، جواهر المعاني، م. س، ج1، ص: 75- 76.
76- يذكر صاحب كشف الحجاب أن سيدي أحمد التجاني لم يغادر فاس منذ رحيله إليها بصفة نهائية، سوى مرة واحدة زار خلالها الأغواط من أجل العمل على تدعيم نفوذ طريقته بهذه البلدة: كشف الحجاب، ص: 469.
77- يمكن الاطلاع على تفاصيل هذه الرسائل في كتاب جواهر المعاني، م. س، ج2، وفي كتاب كشف الحجاب لأحمد سكيرج، م. س.

والتجذر والانتشار، لذلك نجده من خلال هذه الرسائل إما موجها وداعيا إلى التمسك بحبل الله، أو مؤنبا ومؤدبا لسلوكات بعض مريديه ومقدميه عندما يتطلب الأمر ذلك، أو مفسرا وموضحا لبعض الأمور الغامضة في تعاليم الطريقة، أو محيلا على بعض الأدعية الخاصة لقضاء بعض الأغراض أو درء بعض المصائب والأمراض، ملتزما في ذلك الحدود المرخص له بها معترفا بعجزه في أمور لا يستطيع البت فيها كما ورد في إحدى رسائله إلى بعض أصحابه بتونس عندما قال: "***... ثم إن الأمر الذي طلبته مني في التصرف في زوال ضررك لم أجد إليه سبيلا ولا حيلة ولا تعويلا وكل بقضاء الله وقدره*** " [78].

لقد تعدت توجيهات سيدي أحمد التجاني ونصائحه الجمهور العادي، لتشمل فئة الحكام والأمراء، حاثا إياهم على ضرورة تقوى الله والسير في الرعية بما يرضي الله والرسول، وفي ذلك يقول سيدي أحمد التجاني مخاطبا أمير المؤمنين: "***... اعلم أن الله عز وجل قد ولاك أمر خلقك وائتمنك على بلاده وعباده، والله سائلك عن أمانته وعما فعلت، فاحذر من الله أن يجدك فرطت أو اشتغلت عن أمره بلعب...*** " [79].

2- <u>انتشار أدبيات الكرامات وأخبار الخوارق المنسوبة للشيخ</u>:

لا يجادل اثنان في كون المغاربة في غالبيتهم العظمى، منذ دخول الإسلام إلى أرضهم، آمنوا بهذا الدين وبرسوله وبتعاليمه المتضمنة في الكتاب والسنة، ومع مرور القرون لم يزد هذا الإيمان إلا رسوخا في قلوبهم بفضل توجيهات العلماء والأئمة والدعاة والوعاظ. وإذا كان الإنسان المغربي المسلم بشكل عام يتعرض خلال حياته لأصناف شتى من الضغوط والمعاناة والاحتقار والإذلال، نتيجة لعدم الشعور بالطمأنينة، إما بسبب جهله وخبثه أو بفعل ممارسات جائرة عليه لا قدرة له على ردها، فإن الأمل بالنسبة له في الخلاص من هذه الوضعية المتعبة للخلود إلى الراحة الأبدية الشاملة هو عفو الله تبارك وتعالى وشفاعة رسوله النبي الكريم، عند الانتقال إلى دار البقاء التي لن يشقى فيها مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، ليس بعمله ولكن تكرما من الله الرحمان الرحيم العفو الغفور.

هذه القناعة في اعتقادنا عند عموم المغاربة، وإلى يومنا هذا هي التي جعلتهم يتشبثون بحبل الله ورسوله ويكنون حبا خاصا لآل البيت ولأولياء الله الصالحين، مثل الشيخ سيدي أحمد التجاني الذي ينهل من فيض الرسول صلى الله عليه وسلم في اعتقاد عدد كبير من عامة الناس

---

[78]- علي حرازم برادة، جواهر المعاني... م، س، ج2، ص: 184ز

[79]- نفسه، ص: 181.

وخاصتهم، مما يفسر النجاح الكبير الذي عرفته طريقته في مطلع القرن 19. فهو شريف حسني وشيخ صوفي، تلقى مشروعية طريقته من الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة حسب قوله، ومما يزكي هذا الطرح عند التجانيين من خلال أدبياتهم، الكرامات التي ظهرت على شيخهم، والتي توحي بأن كل داخل في هذه الطريقة سوف يكون من الناجين يوم الحساب، وهذه الاعتقادات خلال حياة سيدي أحمد التجاني. وبعد وفاته هي التي أسهمت في تجذر أوراد الطريقة وأذكارها بفاس لتنتشر بعد ذلك في باقي أنحاء المغرب وخارجه، ونظرا لاستحالة حصر عدد الكرامات المنسوبة لسيدي أحمد التجاني فإننا سنقتصر على ذكر خمسة منها فقط.

* الكرامة الأولى: اجتماع سيدي أحمد التجاني بالرسول صلى الله عليه وسلم يقظة لا مناما

ورد هذا الخبر في كتاب جواهر المعاني الذي حرره علي حرازم برادة بأمر من شيخه الذي امتثل في ذلك لإرادة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو الكتاب الذي جمع كل ما فاه به سيدي أحمد التجاني، وبخصوص الكرامة المشار إليها يرى علي حرازم برادة أن شيخه عندما كان بقرية أبي سمغون حوالي سنة 1782/1196، وقع له فيها الفتح وأذن له الرسول صلى الله عليه وسلم في تلقين الخلق بعد أن كان فارا من ملاقاة الخلق... وقع له الإذن منه يقظة لا مناما... وأخبره أنه هو مربيه وكافله وأنه لا يطلب شيئا من الله إلا بواسطته [80].

* الكرامـــة الثانيـــة:

يذكر أحمد سكيرج أنه بلغه على لسان الثقة أن سيدي أحمد التجاني، كان مارا بأعلى زقاق الحجر من مدينة فاس، وكان بعض أكابر الشرفاء جالسين بجانب دار مولاي سليمان المعروفة هناك. فلما رأوا الشيخ نازلا من أعلى الطريق وهو راكب وعن يمينه ويساره خدامه، قال بعضهم لبعض سرا، والله إن هذا التجاني لآية من آيات الله، وسكتوا فلما وصل إليهم، وقاموا ليسلموا عليه قال لهم مكاشفا: قولوا والله إن التجاني لآية من آيات الله العظام وكررها عليهم فتعجبوا من ذلك، وحصل لهم في جانبه زيادة اعتقاد في رسوخ قدمه في الولاية [81].

* الكرامـــة الثالثـــة: مولاي عبد القادر الجيلي يستظل بظل شجرة سيدي أحمد التجاني

حدث أحمد العبدلاوي أحمد سكيرج مؤلف كشف الحجاب، أن أحد العارفين من خط الجريد، وهو السيد علي الشتيوي كان مولعا بالصيد، وذات يوم اصطاد غزالا، فبينما هو مشتغل

80- علي حرازم برادة، جواهر المعاني، م. س، ج1، ص: 43.

81- أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص: 216.

به إذ أتاه الشيخ عبد القادر راكبا على فرسه فاستحيى منه أن يراه على الحالة التي رآه عليها، وكان آخذا طريقته، فصار يتكلم معه إلى أن قال السيد علي الشتيوي للشيخ المذكور: سمعنا يا سيدي شيخا ظهر بأبي سمغون فماذا تقول فيه ؟ فقال له (ر): يا ولدي تلك الشجرة التي نستظل تحتها، فكان هذا سببا في أخذه عن سيدي أحمد التجاني [82].

* **الكرامة الرابعة: أحد قطاع الطرق يتوب وينخرط في الطريقة التجانية**

ويتعلق الأمر بالمقدم السيد زعنون من عمالة الجزائر، الذي كان قبل أخذه الطريقة التجانية من قطاع الطرق الذين طالما شكلوا خطرا على تجار القوافل الصحراوية، ولم يقدر أحد على صده إذا برز إليه، فاتفق أن مات مقدم من مقدمي بعض زوايا سيدي أحمد التجاني فاجتمع الفقراء وأخبروا الشيخ بوفاة مقدمهم، وأتوا يطلبون منه أن يقدم عليهم مقدما، فقال لهم سيدي أحمد التجاني: إني قدمت عليكم زعنون. وخرجوا متعجبين من ذلك وقصدوا الموضوع الذي يقطع فيه الطريق ويترصد الرفاق حتى وصلوا إليه ووجدوه مع بعض البغاة أمثاله، فقالوا له: إن شيخنا سيدي أحمد التجاني قد جعلك مقدما على زاويتنا، فبمجرد ما سمع منهم ذلك أخذه حال عظيم وصار يبكي وفتح الله عليه في الحين، مع أنه لم يقدم خيرا قبل، وما ذلك إلا بنظرة شيخ الطريقة [83].

* **الكرامة الخامسة: غرقى في البحر تتحقق نجاتهم بفضل الاستغاثة بسيدي أحمد التجاني**

يذكر العلامة الحاج الداودي التلمساني الأصل الفاسي القرار، التجاني الطريقة، أنه لما سافر بحرا قاصدا حج بيت الله الحرام، كان من قدر الله تعالى أن تكسرت السفينة بالمسافرين حتى لاحت لهم جزيرة وسط البحر فقصدوها وجلسوا ينتظرون الموت، فبينما هو يفكر إذ ألقى الله في باله مدينة فاس، والشيخ سيدي أحمد التجاني، فاستغاث بالشيخ، فأخذته شبه سنة، وإذا بالشيخ وقف أمامه وقال له: قل يا عليما بالألطاف، نجنا مما نخاف، فانتبه وهو يقولها، فلم يلبث إلا قليلا حتى ظهرت له سفينة وعندما رآهم صاحبها حملهم معه وسار بهم حتى أنزلهم في بر الأمان [84].

ورغم ما غمر الله به هذا الولي من نفحات وأنوار، وما أظهره على يده من فتوحات وكرامات، فإن الخليفة علي حرازم برادة يخبرنا في نفس المصدر أن شيخه كان يخفي الكرامات

82- نفسه، ص: 464.
83- نفسه، ص: 465.
84- نفسه، ص: 441.

ولا يظهر منها شيئا [85]. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن ما خفي من كرامات هذا الشيخ أكثر مما ظهر، وأن بعض الكرامات التي لم ترد أخبارها لا في " جواهر المعاني " ولا في " الجامع لما افترق من العلوم "، ولا في " الإفادة الأحمدية، وانفردت به مراجع ثانوية، قد تكون من قبيل المبالغة.

وقد تبرأ شيوخ التجانية وفقهاؤها بعد وفاة شيخهم من التشويه الذي يكون قد أصاب بعض تعاليم طريقتهم [86]، كما دعوا إلى ضرورة إعمال الفكر والسنة النبوية في كل ما ينسب له من أقواله، فما وافق الشريعة من أقواله يعمل به وما خالف ذلك يترك.

كانت هذه باختصار، هي العوامل التي ساعدت على انتشار تعاليم الطريقة التجانية بمدينة فاس ونواحيها، ليمتد إشعاعها فيما بعد، إلى باقي أنحاء المغرب، وإلى إفريقيا جنوب الصحراء، لتعم جل قارات العالم خلال القرنين 19 و20 م.

85- علي حرازم برادة، جواهر المعاني، م. س، ج2، ص: 209.

86- من أجل الاطلاع على الكثير مما روي، كذبا عن سيدي أحمد التجاني يمكن الرجوع إلى الكتاب القيم الذي ألفه الفقيه أحمد سكيرج تحت عنوان: جناية المنتسب العاني فيما نسب بالكذب للشيخ التجاني. دار الطباعة الحديثة، د.ت.